مقولة «يرحل الكبار ولا يرحلون» في ميزان نظرية الرموز الثقافية

محمود الذوادي(*)

عالم اجتماع ـ جامعة تونس.

أولاً: الحاجة إلى فهم ترشح الفكر للخلود وتفسيره

جاءت افتتاحية العدد الرقم (٣٧٦) من مجلة **المستقبل العربي** (حزيران/يونيو ٢٠١٠)(١) لتُحوّل نيتي السابقة لكتابة بحث حول تأهل الفكر للخلود إلى قرار نهائي لخط سطور هذا النص، الذي يحاول فهم ظاهرة ترشح الفكر البشري للخلود، وتفسير هذه الظاهرة؛ فكاتب الافتتاحية تحت عنوان «محمد عابد الجابري: يرحل الكبار ولا يرحلون» قدم لنا تأملات فلسفية حول حتمية الموت وقدرة **الكتابة الفكرية** المبدعة للإنسان على التحايل على فنائه. الافتتاحية **تمانع العدم وتمنعه**، وبالتالي تجعل معنى الموت نسبياً للإنسان، صاحب الريادة الفكرية. فالجابري في رأي كاتب الافتتاحية هو من فصيل هؤلاء المفكرين الذين يعتبر موتهم أمراً نسبياً؛ إذ إن مشروعه الفكري سيجعله حاضراً على مدى عقود وربما على مدى قرون: «بقي من الراحل ما ليس يرحل، ما سيمدد إقامته في التاريخ لمئات السنين. سيقرأه القادمون إلى العالم بعد قرن أو قرنين أو يزيد مثلما قرأنا الشافعي والجاحظ وابن رشد وابن عربي وابن خلدون ومحمد عبده وطه حسين» (ص ٨). وهذه التأملات الفلسفية حول قدرة المفكرين العظام على عدم الرحيل، والبقاء حاضرين رغم وفاتهم، هي تأملات ذات مصداقية عالية، ولكنها لا تمدّنا بفهم وتفسير موضوعيين حول سبب تأهل الفكر البشري للبقاء طويلاً أو خالداً بعد اندثار جسد صاحبه.

الموضوع، في رأيي، يحتاج إلى أكثر من مجرد تأملات فلسفية؛ هذا ما أود طرحه في هذه المقالة، لا بواسطة الرؤية الفلسفية بل من خلال **منظور العلوم الاجتماعية**. لذا، فإني

(*) البريد الإلكتروني: m.thawad@yahoo.ca.

(١) «افتتاحية العدد: محمد عابد الجابري: يرحل الكبار ولا يرحلون،» **المستقبل العربي**، السنة ٣٣، العدد ٣٧٦ (حزيران/يونيو ٢٠١٠)، ص ٧-١٠.

أستعمل إطاراً فكرياً جديداً لمحاولة التغلب على الغموض الذي لا يني يقف حاجزاً أمام فهم وتفسير شفافين لأسباب أن كبار المفكرين لا يرحلون. أتبنّى هنا مفهومي/نظريتي **للرموز الثقافية** في سعيي إلى كسب رهان الفهم والتفسير لظاهرة تأهل الفكر البشري للبقاء الطويل أو الخلود؛ فبلوغ هذا الهدف يدفع بالطبع إلى الاجتهاد والبحث من أجل الدنو على الأقل من الإلمام بأهم العوامل التي تؤهل الفكر للبقاء طويلاً أو خالداً بعد رحيل صاحبه.

ثانياً: منهجية العقل والنقل

أستعمل كلاً من العقل والنقل لتشخيص موضوع هذه الدراسة وتحليله ومناقشته، وهذا منهجية العقل العربي المسلم العالم في التراث الفكري والعلمي التقليدي للحضارة العربية الإسلامية. وهو يتفق كثيراً مع منهجية محمد عابد الجابري في مشروعه الفكري المرشح للبقاء طويلاً لعقود أو لقرون. فعلى سبيل المثال، يشكّل النجاح الباهر الذي حقّقه العقل الخلدوني ـ الجامع بين العقل والنقل ـ في ميلاد ووضع الحجر الأساس لعلم العمران/ علم الاجتماع الجديد نموذجاً لمشروعية مصداقية هذه المنهجية في التراث الفكري للثقافة العربية الإسلامية، وهي منهجية تطرح **أسئلة إيبستيمولوجية** وفكرية، فيها الكثير من التحدي لمسلّمات العقل العلمي الغربي المعاصر وقناعاته؛ العقل الذي يعتقد مدّعياً أن كسب رهان العلم الحقيقي والمعرفة الأصيلة والصحيحة لا يمكن تحقيقه إذا لم يقع الفصل الكامل بين الدين والعلم، لكن فكر ابن خلدون العمراني ذا الأرضية الإسلامية، كما نجده في مقدمته، وكما ذاعت حصافة بصيرته في العالم، **يفنّد** مسلّمات العقل الغربي الحديث ومعتقده بالنسبة إلى العلاقة بين الدين والعلم؛ فهما ليسا بالضرورة في حالة تناقض وعداء دائمين، كما هو الأمر في الثقافة الغربية المعاصرة، وإنما قد ينعمان بالتعاون والانسجام، على النحو الذي عرفته الثقافة العربية الإسلامية عند أبرز علمائها ومفكريها، وفي طليعتهم ابن خلدون. ومن ثم، ينبغي فهم ادعاءات العقل الغربي المعاصر انطلاقاً من التجربة الغربية الصراعية الخاصة بين **الكنيسة** من ناحية، **والعلماء والمثقفين** من ناحية أخرى.

إذن، ليس من الموضوعية تعميم هذه التجربة الغربية على تجارب ديانات وثقافات مجتمعات وحضارات أخرى مع علمائها ومثقفيها. والإعراض عن التعميم يسمح بفتح الباب عريضاً للعلماء والمفكرين من جميع الثقافات **للبحث عن أكثر من طريق ودرب** من أجل إنشاء وإرساء علوم ومعارف صلبة العود والصدقية في ما يسمّيه العالم البريطاني سنو (C. P. Snow) الثقافتين (The Two Cultures): العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية.

إن منهجية الجمع بين العقل والنقل كوسيلة لإنشاء المعرفة واكتسابها هي من تلك السبل التي تبنّتها الثقافة العربية الإسلامية ونجحت في استعمالها في الدفع بتقدم العلوم والمعارف الإنسانية. وبناء على ذلك، وجدت أنها منهجية تحليلية ملائمة، كما سنرى، للبحث تشخيصاً وفهماً وتفسيراً في إمكانية ترشح الفكر البشري للبقاء والدوام بعد رحيل المفكرين جسدياً عن هذا العالم.

ثالثاً: الفكر جزء من منظومة الرموز الثقافية

قبل القيام بهذا التشخيص، ومن أجل كسب الرهان به، لا بد لي من طرح معْلمين لمنهجيتي المركّبة: **الأول** هو أن أوجز ما توصلت إليه من معطيات وملاحظات حول منظومة الثقافة، أو ما أسمّيه **الرموز الثقافية** التي لم تعد مجرد مفهوم، كما كانت عندي في عهد ميلادها الأول، بل أصبحت الآن منظوراً فكرياً مؤهلاً لتمثيل **نظرية ثقافية عربية** تساعد على فهم وتفسير كثير من الظواهر عند أفراد الجنس البشري ومجتمعاتهم، كما يقول تعريف النظرية نفسه(٢).

والمعْلم **الثاني** هو أن منظومتي تطرح للرموز الثقافية السؤال المركزي التالي: هل الإنسان كائن ثقافي بالطبع؟ وتعني كلمة «ثقافي» عندي في هذه الدراسة وجود العناصر التالية، التي يتميز بها أفراد الجنس البشري: اللغة المنطوقة والمكتوبة والفكر والدين والمعرفة/العلم والأساطير والقوانين والقيم والأعراف الثقافية(٣).

الفكر إذن هو جزء من منظومة الرموز الثقافية، وفهم **طبيعة** هذه الأخيرة يساعدنا على معرفة طبيعة الفكر الإنساني، ومن ثم سبب تأهله للبقاء طويلاً أو حتى للخلود، كما هو الأمر في إمكانية ترشّح المشروع الفكري الجابري لعدم الرحيل عقوداً وربما قروناً قادمة رغم رحيل صاحبه عام ٢٠١٠. واعتماداً على هذا، فإن المعْلميْن المذكوريْن هما مربط الفرس لهذا البحث، أي أن محاولتي للظفر بمعرفة ذات مصداقية حول أسباب بقاء الفكر بعد أصحابه تعتمد في الصميم على **فهمي ووصفي الخاص لمنظومة الرموز الثقافية**. بعبارة أخرى، منظومة الرموز الثقافية هي بيت القصيد في هذه الدراسة، للإمساك بمفاتيح حل ألغاز بقاء/خلود الفكر البشري كظاهرة إنسانية لا تكاد العلوم الاجتماعية المعاصرة، مثلاً، تثيرها وتتطرّق إليها.

رابعاً: أطروحة الإنسان كائن ثقافي بالطبع

إذا كانت الرموز الثقافية تمثّل جوهر الإنسان، فهل يمكن **تأسيس إطار فكري/نظرية** حول فرضية هذه الطبيعة الثقافية للانسان؟ إن الإجابة الشافية عن هذا السؤال ربما تحتاج إلى آلاف الكلمات في مقال أو دراسة أو كتاب، أو حتى إلى مجلدات عدة. ويمكن للمرء أن يتبنّى، مثلاً، منظور الفلسفة أو منظور العلوم الاجتماعية، أو كليها معاً، كي يكتب أطروحة متماسكة في هذا الموضوع. فنحن نعرف كم سال حبر أقلام الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين، على وجه الخصوص، من الحضارات كافة وفي جميع العصور حول مقولة مشابهة تتمثّل في أن **الإنسان مدني/اجتماعي بالطبع**. ومن جهتي، أعتقد أن ليس من الضروري الإطناب في النقاش والجدال في جوهر الحجج التي تؤكد **الطبيعة الثقافية** للكائن البشري.

المسألة يمكن حسمها في مقال قصير لا يتجاوز بضعة آلاف الكلمات، وكما يقال في

---

(٢) *Encyclopedia of Sociology*, 5 vols. (Guilford, CO: Dushkin Publishing Group, 1974), p. 274.

(٣) محمود الحبيب الذوادي، **الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الإجتماعية** (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٦).

الثقافة العربية: خير الكلام ما قل ودل، أو البلاغة في الإيجاز، وهو ما أرغب في القيام به باقتصاد شديد في الحروف والكلمات، من ناحية، وببساطة في التعبير وربما في الإقناع في **قضية تبدو معقدة**، من ناحية أخرى. ولبلوغ ذلك، أعتمد على منهجية الجمع بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية؛ إذ يصعب التعمق في فهم طبيعة الإنسان في غياب أي من هذين الصنفين من العلوم، ولا يجوز علمياً تحليل جوهر الإنسان وعمق كينونته من دون الحديث عن العوامل البيولوجية والفيزيولوجية/الجسمية عند الإنسان. كما لا تُقبل محاولة فهمه بالكامل إذا هُمّش أو تُرك جانباً **أهم ما يميز الجنس البشري** بطريقة فاصلة وحاسمة عن بقية الأجناس الحية الأخرى، وهو المنظومة الثقافية، أو ما أسمّيه الرموز الثقافية. وبحسب علمي، فإن فرضية الطبيعة الثقافية للإنسان فرضية جديدة لا تكاد تطرحها وتنادي بها أية مدرسة من المدارس الفكرية في حقل العلوم الاجتماعية المعاصرة، مثل الماركسية والبنيوية والوظيفية والتحليل النفسي والسلوكية (Behaviorism).

خامساً: إثبات مركزية الرموز الثقافية في طبيعة الإنسان

إن فرضية الطبيعة الثقافية لكينونة الإنسان المشار إليها تحتاج إلى اختبار يُظهر بطلانها أو يؤكد مصداقيتها. وهذا ما أود القيام به الآن في تحليلي **العقلي** ومنهجيته.

تستند مقولتي في صدد البرهنة على مركزية الرموز الثقافية في صلب طبيعة البشر إلى ملاحظات رئيسية محددة حول **خمسة معالم** ينفرد بها الجنس البشري عن غيره من الأجناس الحية الأخرى:

المعْلم **الأول** هو أن النمو الجسمي لأفراد الجنس البشري يتصف **ببطء شديد**، مقارنة بسرعة النمو الجسدي الذي نجده عند بقية الكائنات الأخرى؛ فالطفل مثلاً يمشي على قدميه قبل، أو بُعيد، بلوغه العام الأول من عمره، بينما تدب صغار الحيوانات بعد ساعات أو أيام قليلة من ولادتها[٤].

وبناء على ذ لك النمو البطيء، تأتي مشروعية ضرورة تمتّع أفراد الجنس البشري بمعدل **سن أطول** من عمر معظم أفراد الحيوانات (ناهيك عن جميع الثدييات) كي يتسنّى لعملية النمو المتعددة والمعقدة المستويات عند الإنسان أن تكتمل وتبلغ أقصى نضجها، وهذا هو المعْلم **الثاني**. والحق، كل الحق، لمن يقول إن بعض السلاحف يعمّر أكثر من الإنسان، ولكن هذا القول يعزز الجانب العلمي في نظرية الرموز الثقافية؛ إذ يؤكد فيلسوف العلوم الشهير كارل بوبر (K. Popper) أن النظرية تصبح علمية متى أمكن نفي مقولتها، أي **تفنيدها**، في بعض الحالات[٥]. فنظرية النسبية لأينشتاين تختلف عن نظرية التحليل النفسي عند

---

(٤) محمود الحبيب الذوادي، «لماذا يعجز الأطفال عن المشي المبكر مثل صغار الحيوانات؟،» **التقدم العلمي**، العدد ٦٩ (حزيران/يونيو ٢٠١٠)، ص ٩٤-٩٧.

(٥) كارل بوبر، **منطق البحث العلمي**، ترجمة وتقديم محمد البغدادي، أصول المعرفة العلمية (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦)، ص ١٠٩-١١٦.

فرويد؛ حيث إن الأولى معرضة للتفنيد بينما تجد الثانية دائماً تفسيراً لمشاكل المرضى النفسانيين، أي إن نظرية فرويد غير قابلة للتفنيد. ومن ثم، يخلص بوبر إلى القول إن **النظرية تكون علمية فقط إذا كانت قابلة للتفنيد**، ويستنتج من ذلك أن هدف العلم لدى بوبر لا يتمثل، إذن، في الوصول إلى ما هو يقيني وحقيقي بطريقة نهائية، بل العكس هو الصحيح في هذا المنظور الجديد للعلم.

أما على مستوى السلوك، هناك المعْلم **الثالث** المتمثّل في انفراد الجنس البشري بتأدية **دور السيادة** أو **الخلافة** في هذا العالم من دون منافسة حقيقية له من طرف باقي الأجناس الأخرى. وهذه ميزة إنسانية في الصميم تحتاج إلى الفهم والتفسير، وخصوصاً من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، وهذا ما أحاول الإسهام فيه من خلال رؤية نظرية الرموز الثقافية.

في ما يتعلق بالمعْلم **الرابع**، وكما ذكرت من قبل، يتميّز الجنس البشري بطريقة فاصلة وحاسمة من الأجناس الأخرى بمنظومة ما أطلقت عليه مصطلح **الرموز الثقافية**: اللغة والفكر والدين والمعرفة/العلم والأساطير والقيم والأعراف الثقافية.

وعلى صعيد المعْلم **الخامس**، يختص أفراد الجنس البشري **بهوية مزدوجة** تتكوّن من الجانب الجسدي من جهة، والجانب الرموزي الثقافي من جهة ثانية، وهي ثنائية تشبه مصطلح الجسد والروح الذي يستعمله الفلاسفة وعلماء الدين. ونظراً إلى غموض كلمة «الروح» عندهم جميعاً، فإني أفضّل استعمال مصطلح «الرموز الثقافية» بدل الروح، لكون معناه أكثر وضوحاً، وفقاً لتعريفي المحدد لها في هذا البحث. وبذلك، يجوز في رؤية الإطار الفكري لنظرية الرموز الثقافية صوغ هوية الإنسان المزدوجة في المعادلة التالية: **الإنسان = جسم + رموز ثقافية**.

ولكي أثبت، أو أنفي، صحة فرضية مركزية الرموز الثقافية في الإنسان، أي أَنه كائن ثقافي بالطبع، فإن التساؤل المشروع الآن هو: **هل من علاقة** بين تلك المعالم الخمسة التي يتميّز بها الإنسان؟

١ ـ هناك علاقة مباشرة بين المعْلمين الأول والثاني؛ إذ إن النمو الجسمي البطيء عند أفراد الجنس البشري يؤدي، بالضرورة ـ كما سبق أن ذ كرت ـ إلى حاجتهم إلى معدل سن أطول يمكّنهم من تحقيق مختلف مراحل النمو والنضج المتعددة المستويات. فالعلاقة بين الاثنين هي، إذن، من نوع **العلاقة السببية**.

٢ ـ أما الهوية المزدوجة التي يتصف بها الإنسان، فإنها أيضاً ذات **علاقة مباشرة** بين العنصر الجسدي (المعْلم الأول) للإنسان من ناحية، والعنصر الرموزي الثقافي (المعْلم الرابع) من ناحية أخرى، أي إن سبب ازدواجية هوية الإنسان يرجع إلى المعْلمين الأول والرابع.

٣ ـ عند البحث عن علاقة سيادة الجنس البشري في العالم بالمعالم الأربعة الأخرى، نجد أن المعْلمين الأول والثاني **لا يؤهلانه**، على مستوى القوة المادية، لكسب رهان السيادة على بقية الأجناس الحية الأخرى؛ فالإنسان أضعف جسدياً من كثير من الكائنات الأخرى. ومن ثم، يمكن الاستنتاج بأن سيادة الجنس البشري ذات علاقة قوية ومباشرة بالمعْلم الرابع

(الرموز الثقافية) والمَعْلم الخامس (الهوية المزدوجة)، والعنصر المشترك بين المَعْلمين هو منظومة الرموز الثقافية. وهكذا، يتجلّى **الدور المركزي** والحاسم لمنظومة الرموز الثقافية في صلب هوية الإنسان في تمكينه وحده من **السيادة** أو الخلافة في هذا العالم. إذن، الرموز الثقافية هي السبب الأول والأخير الذي مكّن، ويمكّن الجنس البشري وحده من السيادة في هذا العالم.

٤ ـ لقد وجدتُ أن الدور المركزي للرموز الثقافية لا يقتصر على منح السيادة للإنسان في هذا العالم، بل إنه يؤثر أيضاً في الإنسان فيزيولوجياً وبيولوجياً. وقد راسلتُ المجلة الأمريكية العلمية الشهيرة *Scientific American Mind* حول أسباب بطء النمو الجسمي عند الإنسان، فلم يأتني رد من هيئة تحرير هذه المجلة إلا بعد حوالى عام. كان ذلك في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥. واقتصر الرد على إسداء النصح لي بالاطّلاع على المواقع الإلكترونية لعلم الأنثروبولوجيا. ومن ثم، رأيت مشروعية طرح **الفرضية التالية**: إن الرموز الثقافية/ الثقافة تسمح بتفسير المَعْلمين الأول والثاني؛ فعملية النمو الجسمي البطيء عند الإنسان يمكن إرجاعها إلى كونها تشمل **جبهتين**: الجبهة الجسمية والجبهة الرموزية الثقافية، خلافاً للنمو الجسدي السريع عند الكائنات الأخرى بسبب فقدانها منظومة الرموز الثقافية بمعناها البشري الواسع، أي أن الأمر في عملية النمو الشامل لدى الانسان يتطلب بذل جهدين، وهو ما يؤدي إلى **تعطيل سرعة عملية النمو عند الإنسان على الجبهتين**. وينتج من ذلك بطء في النمو الجسمي والرموزي الثقافي على حد سواء(٦). وتختلف نظريتي المتعلقة بمركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان عمّا نجده في العلوم الاجتماعية الغربية(٧).

٥ ـ يلخّص الرسم في الصفحة التالية **مركزية الرموز الثقافية** في هوية الإنسان، فيعطي بذلك مشروعية قوية لمقولتي النظرية المتمثلة في أن الإنسان كائن ثقافي بالطبع. ومفهوم النظرية، كما رأينا من قبل، هو ذلك الإطار الفكري الذي يسمح بتفسير ظواهر عدة. وهذا ما يتجلّى في الرسم في تأثير الرموز الثقافية الحاسم في:

ـ انفراد الجنس البشري بالسيادة في هذا العالم؛

ـ بطء نمو جسم الإنسان؛

ـ تمتّع الإنسان بعمر أطول بين جميع الثدييات؛

ـ اتصاف الإنسان بهوية مزدوجة.

وبناء على هذا الأساس، فإن منظومة الرموز الثقافية مؤهلة وصالحة لتكون **نظرية ثقافية** تساعد على فهم شؤون الناس ومجتمعاتهم وحضاراتهم وتفسيرها. وتلك هي الوظيفة الرئيسية للنظرية في العلوم الطبيعية والاجتماعية على حد سواء.

---

(٦) الذاودي، المصدر نفسه، ص ٩٤ ـ ٩٧، ومحمود الحبيب الذوادي، «هل الثقافة وراء تأخر المشي المبكر عند الأطفال؟،» **العربي**، العدد ٦١٨ (أيار/مايو ٢٠١٠)، ص ١٧٢-١٧٤.

(٧) *Scientific American Mind* (2009), p.74.

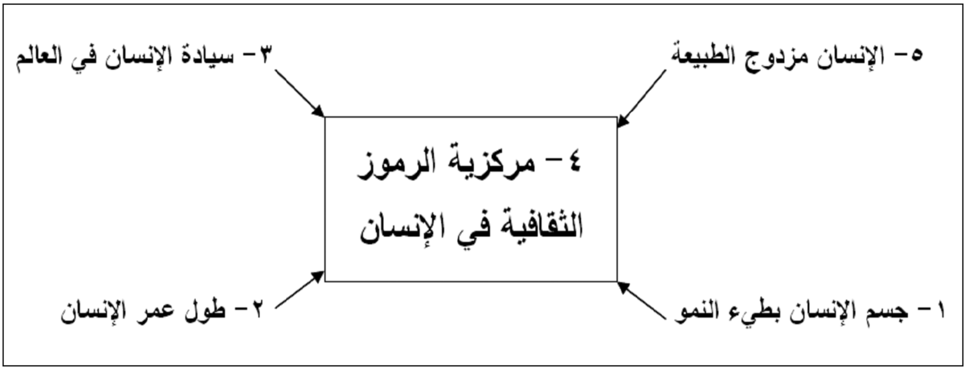

سادساً: مركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان في القرآن

أعتقد أن التحليل العقلي لمركزية الرموز الثقافية في الإنسان يجد سنداً قوياً في فكر التراث **النقلي** الإسلامي، وبالتحديد في القرآن الكريم، وهذا ما أحاول الكشف عنه في ما يلي.

كما أكدت في مطلع هذا الدراسة، فمنهجيتي في هذا الطرح الفكري هي منهجية العقل المسلم العالم **الذي يجمع بين العقل والنقل**. والسؤال المشروع في هذا الصدد هو: هل توجد آيات في القرآن تؤكد مركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان؟

أقتصر في البحث عن ذلك على ما جاء في سورة الحجر وسورة ص: ﴿**فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾(٨)؛ فالخطاب في هذه الآية الواردة في السورتين موجه من الله تعالى إلى الملائكة لكي **تسجد لآدم** تكريماً له دون غيره من المخلوقات الأخرى. ومن ثم، تأتي مشروعية معرفة معنى كلمة **روحي** الواردة في هذه الآية. فقد ذهب معظم المفسرين إلى القول إن كلمة روحي تعني بث الحياة في آدم، وهو معنى لا ينسجم مع السياق الذي وردت فيه هذه الآية؛ فلو كان معنى كلمة روحي مجرد بث الحياة في آدم لما كان الإنسان متميزاً من المخلوقات الأخرى حتى يدعو الله الملائكة إلى السجود لآدم وحده. من هنا، **لا بد أن تعني** كلمة روحي في الآية المشار إليها **شيئاً يتميز به الإنسان** من سواه بما يؤهله وحده لأن تسجد له الملائكة من جهة، وتعطيه وحده أيضاً الخلافة/السيادة في العالم من جهة ثانية، كما جاء في سورة البقرة: ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة**﴾(٩).

إن التساؤل عن معنى كلمة «روحي» الواردة في السورتين تساؤل مشروع جداً لأن الصيغة التركيبية لكلمات الآية تفيد بأن طلب سجود الملائكة لآدم **تلا نفخ روح الله فيه**، أي إن هناك علاقة قوية، إن لم تكن سببية، بين عملية نفخ الروح الإلهية في آدم ودعوة الله الملائكة إلى السجود له. وكما هو معروف، فإن كلمة الروح في القرآن أتت بمعان مختلفة، وفي طليعتها بث الحياة في الكائنات. ويشير عدد من كتب المفسرين لكلمة «روحي» في هذا الآية إلى

(٨) **القرآن الكريم**: «سورة الحجر،» الآية ٢٩، و«سورة ص،» الآية ٧٢.
(٩) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٣٠.

أن معظمهم رأى أن لفظة «روحي» هنا تعني القدرة على بث الحياة في الكائنات؛ فـ **تفسير الجلالين**[١٠] يقول: «... وإضافة الروح إليه تشريف لآدم. والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه...». أما المفسر السوري المشهور اليوم عفيف عبد الفتاح طبارة، فيقدم لنا هذا الشرح التفسيري لمعنى كلمة «روحي» في الآية بـ «ونفخت فيه من قدرتي، أو بعبارة أخرى، فإذا أفضت عليه ما يحيا به من الروح التي هي من أمري... فخروا له ساجدين»[١١]. وأختم بتفسير الشيخ متولي الشعراوي، أشهر المفسرين المصريين في العصر الحديث، حيث يصوغ معنى روح الله ونفخها في آدم كالتالي: «والنفخ من روح الله لا يعني أن النفخ قد تم بدفع الحياة عن طريق الهواء في فم آدم. ولكن الأمر تمثيل لانتشار الروح في جميع أجزاء الجسد. وقد اختلف العلماء في تعريف الروح، ورأى أنه من الأسلم عدم الخوض في ذلك الأمر لأن الحق سبحانه هو القائل ﴿**يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾[١٢].

واضح من مضمون هذه التفاسير أن معنى لفظة «روحي» اقتصر على مجرد معنى قدرة الله على بث الحياة في آدم، وهي ما لا يعرف البشر أسرارها، ومن ثم، دعا الشيخ الشعراوي إلى تحاشي الخوض فيها. إن الاقتصار على هذا التفسير لمعنى كلمة «روحي» لا يسمح منطقياً لآدم الإنسان بأن يتبوأ منصب خلافة الله في الأرض وسجود الملائكة له تكريماً لخصوصية خلقه وتميزه؛ إذ لم يبث الله الحياة في الإنسان فقط، بل بثها أيضاً في جميع الكائنات. وبالتالي، فمجرد بث الحياة في الإنسان لا يؤهله وحده لخلافة الله على الأرض. ولا بد، إذن، من **البحث عن معنى آخر للفظة «روحي»** يفسر بقوة مكانة تميز الإنسان وتفوقه على بقية المخلوقات في إدارة شؤون الأرض كخليفة لله؛ فالحاجة ماسة هنا إلى تأويل كلمة «روحي» حتى يستقيم معناها مع السياق القرآني الذي وردت فيه الآية.

سابعاً: مساهمة العلوم الاجتماعية في فهم كلمة «روحي»

هنا يأتي، في رأيي، **دور العلوم الاجتماعية** في مساعدة مفسري القرآن وهديهم إلى المعنى المناسب الذي ينبغي أن يُعطى لكلمة «روحي» في آية ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾. فالكثير من المفسرين المحدثين يستعينون باكتشافات العلوم الحديثة في تفسير الآيات القرآنية التي لها علاقة بخلق الإنسان، وفهم عمل مخ الإنسان وجسمه، أو لها علاقة بالظواهر الطبيعية في الكون، مثل الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والبراكين والزلازل، وهو ما يعزز فكرة إعجاز القرآن. وقد ازدادت المؤلفات وكثر انعقاد الندوات والمؤتمرات في هذا الميدان في العالم الإسلامي المعاصر. وإني أتفق مع المفكر الإسلامي وعالم الجيولوجيا الكبير د. زغلول النجار الذي يؤكد أن الفهم الصحيح لكثير من

---

(١٠) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، **تفسير الجلالين**، ط ٧ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧)، ص ٤٥٧.

(١١) عفيف عبد الفتاح طبارة، **تفسير جزء يس** (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٥)، ج ٢٣.

(١٢) **القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ٨٥، ومحمد متولي الشعراوي، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، ٣٣ ج (بيروت: دار العودة، ١٩٨٧)، ج ١٢، ص ٧٦٩٤.

الآيات القرآنية لا يمكن أن يتم بدون الاعتماد على الاكتشافات العلمية ذات المصداقية العالية حول الإنسان والظواهر الطبيعية للعالم/ للكون. والمفسرون المحدثون مطالبون هم أيضاً، وبالدرجة نفسها، بالاستفادة من الرصيد المعرفي العلمي للعلوم الاجتماعية المعاصرة في ما له علاقة بفهم سلوك الأفراد والجماعات وحركية المجتمعات والحضارات والمعالم الثقافية البشرية. فهذه العلوم تساعد بالتأكيد على الاقتراب من فهم معنى كلمة «روحي» في الآية المشار إليها هنا. وعلوم الأنثروبولوجيا والاجتماع والنفس تجمع كلها على أن الإنسان يتميز من غيره من الكائنات الأخرى ويتفوق عليها بما تسمّيه تلك العلوم **الثقافة** أو تطلق عليه مصطلح **الرموز الثقافية**: اللغة، الفكر، المعرفة/العلم، الدين، القيم والأعراف الثقافية... أي إن الجنس البشري ينفرد بتلك المنظومة من الرموز الثقافية وهي التي أهّلته وحده في الماضي وتؤهله اليوم وفي المستقبل لتأدية دور خليفة الله في الأرض. وبعبارة أخرى، يصبح معنى « نفخت فيه من **روحي**»، وفقاً لتأويلي هنا، أن النفخة الإلهية في آدم هي في المقام الأول **نفخة ثقافية** بالمعنى المعاصر الذي تعطيه العلوم الاجتماعية لمصطلح الثقافة؛ إذ بهذه الأخيرة يفسر علماء العلوم الاجتماعية تميز الإنسان وسيادته في هذا العالم على بقية المخلوقات، كما يوضح الرسم السابق. واعتماداً على ذلك، لا بد لمعنى كلمة روحي في «ونفخت فيه من روحي» من أن يفيد أولاً، وبالذات، نفخة الرموز الثقافية في آدم وحده التي أعطته، دون سواه، مقاليد الخلافة في الأرض وما تبعها من سجود الملائكة له. بهذه القراءة الثقافية لمعنى كلمة «روحي» في الآية، يتضح مدى تحسّن مصداقية تفسير معاني آيات القرآن عندما يستعين المفسرون بالرصيد العلمي الحديث لكل من علوم الطبيعية وعلوم الإنسان والمجتمع على حد سواء. وبتعبير الجابري، يمثّل تأويلي لكلمة روحي بمعنى الرموز الثقافية محاولة **لتحديث التراث** وجعله معاصراً لتيارات المدارس الفكرية والعلمية الحديثة ذات المصداقية العالية.

ثامناً: دور الرموز الثقافية في دوام فكر الراحلين الكبار

يمثّل تأكيد مركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان بمنهجية العقل والنقل أعلاه، وتميُّز هذا الأخير بها عن بقية الكائنات الأخرى **خطوة أساسية** لفهم ظاهرة الفكر البشري وتفسيرها، وإمكانية ترشحه للبقاء الطويل أو حتى للخلود. ومن ثم، هناك مشروعية كبيرة لطرح هذا السؤال: هل من علاقة بين الرموز الثقافية وترشح فكر العظماء من المفكرين للبقاء طويلاً أو للخلود؟ فالسؤال مشروع **إيبستيمولوجياً** على مستويين، **أولهما** النظر إلى أن الفكر والرموز الثقافية هما **ميزتان** ينفرد بهما الجنس البشري، وهو ما يوحي باحتمال وجود علاقة بينهما، و**ثانيهما** اتضاح طبيعة العلاقة بين الاثنين من إشاراتي السابقة إلى أن الفكر الإنساني هو جزء من منظومة الرموز الثقافية، الأمر الذي يعزّز قوة فرضيتي التي تعتبر الرموز الثقافية مصدراً/سبباً لنشأة الفكر البشري أولاً واستمراره وخلوده ثانياً. بعبارة أخرى، العلاقة بين الرموز الثقافية والفكر البشري هي من نوع **العلاقة السببية**. ولإيضاح العلاقة بين الرموز الثقافية والفكر، لا بد من **منهجية مركّبة** تُبرز أهم معالم طبيعة تلك العلاقة.

١ ـ الرموز الثقافية كبيئة لنشأة الفكر

إن تأكيدنا مركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان يساعد كثيراً على فهم ظاهرة الفكر البشري وتفسيرها، وإمكانية استمرار هذا الفكر وحتى خلوده، الأمر الذي يعزّز ترشح الرموز الثقافية لكي تكون **نظرية ثقافية** متماسكة. فالعناصر المكونة لمنظومة الرموز الثقافية (اللغة والفكر والدين والمعرفة/العلم والقيم والأعراف الثقافية...) **تؤهل الإنسان لإنشاء الفكر** بالطرق التالية:

أ ـ تأتي اللغة في الطليعة في هذا الأمر؛ فقد أكدت البحوث المعاصرة العلاقة القوية السببية بين اللغة والفكر، وهي تتلخص في القول: ينعدم التفكير والفكر بدون اللغة. هذا على المستوى النظري، أما على المستوى العملي، فالإنسان يعبّرعن فكره بواسطة استعماله للغة في شكليها الشفوي والمكتوب. وممّا لاشك فيه أن إنشاء الفكر والتعبير عنه في لغة مكتوبة يرشحاه أكثر من نظيره الشفوي للاستمرار والدوام، وحتى للخلود عبر العصور.

ب ـ يمثّل ميدان المعرفة والعلم، كعنصرين في تعريفي لمنظومة الرموز الثقافية، عاملاً هاماً لنشأة الفكر الإنساني ونضجه. وهذا ما يشهد عليه العصر الحديث على وجه الخصوص.

ج ـ أثبت الدين عبر جميع الحضارات البشرية أنه عنصر فعال في إنشاء الفكر الإنساني، وفكر الحضارة العربية الإسلامية متأثر بقوة بثقافة الدين الإسلامي.

د ـ أما عالم القيم والأعراف الثقافية، فقد أنتج فكراً واسعاً في علمي الأنثرويولوجيا والاجتماع بصورة خاصة.

هـ ـ والفكر بأنواعه كلها، كعنصر من منظومة الرموز الثقافية، يقود إلى ظاهرة الفكر حول الفكر؛ فعلى سبيل المثال، كم من كتب فكرية أُلّفت حول الفكر العمراني في مقدمة ابن خلدون منذ عصر هذا الأخير؟

هكذا يتضح أن العناصر الرئيسية **لمنظومة الرموز الثقافية** تؤدي دوراً بارزاً في إنشاء الفكر الإنساني بأصنافه المتعددة. فهي، إذن، **بيئة صالحة** ليس فقط لميلاد الفكر وإنما أيضاً لنموه ونضجه واستمراره حياً لزمن قصير أو طويل قد يصل إلى كسب رهان الخلود عبر الزمان والمكان.

٢ ـ تجاوز طبيعة الفكر لمنطق الماديات

إن التحليل السابق لطبيعة منظومة الرموز الثقافية، وكبيئة صالحة لإنشاء الفكر الإنساني، يحتاج الآن إلى خطوة منهجية بحثية إضافية، من أجل الاقتراب من فهم ظاهرة ترشح الفكر الإنساني وتفسيرها للبقاء طويلاً أو حتى للخلود. وحتى نفتح لهذا الغرض السبيل منهجياً أمام موضوع هذه الدراسة، نود **إيبستيمولجياً** التعرّف إلى جوانب أخرى لا تكاد العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة تشير إليها في دراستها لمنظومة الثقافة/الرموز الثقافية.

فعند التعمق في جوهر طبيعة الرموز الثقافية، تبيّن لنا أنها تتسم بلمسات متعالية (Transcendental) تجعلها تختلف عن صفات مكونات الجسم البشري وعالم المادة. ولشرح ذلك، نكتفي بذكر سمة رئيسية لمنظومة الرموز الثقافية تساعد على فهم ترشح الفكر البشري للبقاء الطويل أو للخلود وتفسيره.

تتمثّل هذه السمة في ما أسمّيه **خلو الرموز الثقافية من الوزن والحجم** بالمعنى المادي للأشياء؛ فمن خلال رؤية إيبستيمولوجية/معرفية، تتصف الرموز الثقافية بتلك السمة؛ حيث إن لجميع العناصر المادية وزناً وحجماً مهما تكن صغيرة وخفيفة، وهذا ما لا نجده في عناصر منظومة الرموز الثقافية البشرية كاللغة والفكر والدين والمعرفة/العلم والأساطير والقيم والمعايير الثقافية في المجتمعات والحضارات الإنسانية. ومن ثم، يمكن القول إن **الرموز الثقافية** هي ذلك **الجانب الروحي من الإنسان** كما تحدث عنه الفلاسفة والرسالات الدينية عبر العصور، باعتبار أن طبيعة الروحانيات ليست من جنس طبيعة الماديات. فللأخيرة، مثلاً، وزن وحجم بينما ليس للأولى وزن وحجم بالمعنى المادي. وإني أعتبر أن هذه **السمة غير المادية** لطبيعة الرموز الثقافية أمر مشروع جداً لأنها تصف واقع الرموز الثقافية الذي أهملته العلوم الاجتماعية الغربية الحديثة ولا يمكن من دونه فهم وتفسير الكثير من الظواهر ذات العلاقة بالرموز الثقافية، مثل ظاهرة البقاء الطويل أو الخلود للفكر البشري، موضوع هذه المقالة. فعلى المستوى الإيبستيمولوجي، ليس من العجيب أن لا يتناول علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع الغربيون وغيرهم هذه الجوانب في تحاليلهم للثقافة كنسق ذي أولوية في تحليل ودراسة المجتمعات البشرية. ويعود ذلك في المقام الأول إلى أن العلوم الحديثة بأصنافها كلها تقريباً أعطت العوامل والمؤثرات المادية المحسوسة والكمية أهمية كبرى، من ناحية، وهمّشت ـ من ناحية أخرى ـ نظيراتها غير المادية، التي لا يمكن التعامل معها بمنهجية ومنطق العلم الوضعي الغربي (Positivism)، الذي يهيمن في العصر الحديث على أنساق المعارف والعلوم في القارات الخمس، بسبب الهيمنة الغربية في دنيا العلوم الصحيحة والاجتماعية على حد سواء(١٣).

ومن منطلق تشخيصي لازدواجية هوية الإنسان كجسد ورموز ثقافية (جانب مادي ذو وزن وحجم، وجانب غير مادي/لا وزن له ولا حجم)، تأتي مشروعية ضرورة إفساح المجال في البحث العلمي **لتجاوز المنطق المادي لفهم الظواهر وتفسيرها**. يصلح هذا المنظور للمساعدة على فهم موضوع هذه الدراسة وتفسيره: طول بقاء، أو خلود الفكر البشري. فالمفكرون بشر ذوو هوية مزدوجة، كما رأينا: الجسد هو الجانب المادي من الإنسان والرموز الثقافية هي الجانب غير المادي (لا وزن لها ولا حجم) منه. وباعتبار الفكر جزءاً صميماً في منظومة الرموز الثقافية، كما أكدتُ ذلك من قبل، فإنه مترشح لكي **لا يخضع** للمنطق المادي الذي يتأثر به جسم الإنسان حتماً والمتمثّل في الفناء والتلاشي بعد الموت المحتوم. وبعبارة

(١٣) Sayed Farid Alatas, *Alternative Discourses in Asian Social Science: Responses to Eurocentrism* (New Delhi: Sage Publications, 2006).

أخرى، **الفكر**، كعنصر رئيسي في الرموز الثقافية، **مؤهل** بكل مشروعية **لكي يتجاوز عوائق المنطق المادي** ويبقى طويلاً، أو يكسب حتى رهان الخلود بعد فناء أجساد المفكرين الذين لا بد أن يرحلوا جسدياً.

٣ ـ علاقة اللغة بإنشاء الفكر وتخليده

بالإضافة إلى طبيعة الفكر غير المادية المؤهِّلة له للبقاء طويلاً أو حتى الخلود بعد رحيل أصحابه، كما رأينا ذلك للتو، يمكن اكتشاف ترشح الفكر الإنساني للاستمرار، وحتى للخلود، بواسطة **عامل ثان** يتمثّل في اللغة المنطوقة والمكتوبة، كما أُشير سابقاً باختصار. لكن الأمر يحتاج إلى تفاصيل أكثر حتى تتضح هذه العلاقة المتينة بين اللغة والفكر.

هناك اتفاق بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين اهتموا أكثر من غيرهم بدراسة عالم الثقافة/الرموز الثقافية، على أن اللغة في شكليها المنطوق والمكتوب هي أهم تلك الرموز الثقافية جميعاً، لأن بدون حضورها لا يمكن أن توجد بقية الرموز الثقافية. ومن ثم، جاءت مقولتي لتعتبر أن **اللغة هي أم الرموز الثقافية جميعاً**، أي أنها العمود الفقري بالنسبة إلى إنشاء ظاهرة عالم منظومة الرموز الثقافية بجميع عناصرها، ومن بينها الفكر. ويجوز أن نطلق على هذا اسم الجانب العام أو غير المباشر للعلاقة بين اللغة والفكر. أما الجانب الخاص أو المباشر، فيتمثّل في أن اللغة هي الوسيلة الأساسية التي يعبّر بها الإنسان عن فكره أو يكتبه بها. إذن، العلاقة بين الفكر واللغة هي حقيقة واضحة المعالم.. وللغة قدرة كبيرة على **تخليد خاصة ما يكتب بها**. وبالتالي، يفسر هذا سبب مشروعية ترشح الفكر الإنساني لطول البقاء وحتى للخلود، نظراً إلى العلاقة الوثيقة بين اللغة والفكر التي تؤكدها البحوث المعاصرة والحديثة في العلوم الإنسانية والاجتماعية. فاللغات المكتوبة بالتحديد تمكّن المجموعات البشرية من تسجيل ذاكراتها الجماعية والمحافظة عليها إلى أجل غير مسمّى يشبه طول بقاء وخلود الكائنات الميتافيزيقية/المتعالية. وينطبق هذا الأمر على تأهل الفكر البشري للاستمرار الطويل أو حتى للخلود عبر مختلف العصور والحضارات البشرية. وممّا لا شك فيه أن الشخصيات التي كُتب لفكرها البقاء الطويل أو الخلود على مر العصور أخذت القلم وعبّرت عن فكرها بلغة واحدة أو بلغات متعددة. ومن ثم، فإن **استعمال اللغة هو شرط ضروري لإنشاء الفكر، وكسبه رهان الاستمرار، وإمكانية الخلود عبرالزمان والمكان**. فالعلاقة بين اللغة والفكر هي إذن علاقة عضوية وحميمية إلى أقصى درجة. وقد خطّ محمد عابد الجابري مشروع فكره العربي الإسلامي بلغة الضاد، خلافاً لكثير من المفكرين والكتّاب المغاربة الذين كتبوا عن الفكر العربي الإسلامي باللغة الفرنسية. وباستعماله للغة العربية، فإنه لا يشكو اغتراباً لغوياً، الأمر الذي جعل فكره أقرب إلى أغلبية المتعلمين والمثقفين في الوطن العربي.

بعبارة أخرى، إن فكر الجابري، سواء في رباعيته الشهيرة لنقد العقل العربي أو في غيرها من مؤلفاته الكثيرة، مرشح في الحاضر، وربما لعقود وقرون في المستقبل، لكي يكون أكثر حضوراً وعضوية وحميمية في الحياة الثقافية لمعظم المجتمعات العربية، التي تبقى فيها اللغة العربية الفصحى لغة الفكر والثقافة العالمة في دنيا المعارف والعلوم.

تاسعاً: طبيعة الفكر ترشحه للبقاء

يتصف العمل الفكري **بالاستقلالية** عن صاحبه بمجرد ميلاده، بينما لا يتمتع العمل الجسدي بذلك. فمهارة محمد علي كلاي في الملاكمة، مثلاً، لا يمكن أن تكون مستقلة عنه، ذلك بأن تجسدها وبقاءها يتوقفان بالكامل عليه كبطل للملاكمة في فترة محدودة من حياته. يجوز تفسير هذا الفارق بطبيعة قطبي ازدواجية الإنسان المتمثّلة في الجسد والرموز الثقافية. واختلافهما على مستوى حضور أو غياب الاستقلالية المشار إليها يأتي من انتمائهما إلى قطبين مختلفين من هوية الإنسان؛ فالعمل الفكري ينتسب إلى قطب الرموز الثقافية/القطب غير المادي، والعمل الجسدي ينتمي إلى قطب الجسد/القطب المادي. تسمح هذه الرؤية المبنية على عالم الرموز الثقافية بتفسير تمتّع الفكر البشري لا بكثير من الاستقلالية عن صاحبه فحسب، وإنما أيضاً بقدرته على البقاء حياً حتى لو لم يدوّنه صاحبه في كتابته في نص.

إن الفكر اللغوي للعالم فردينان دي سوسير (F. De Saussure) مثال على ذلك؛ فهو لم يقم بكتابة فكره المشهور في مؤلفه المعروف **درس في علم اللسانيات العام** *(Cours de linguistique générale)*، بل تكفل طلبته بعد وفاته عام ١٩١٣ بجمع فكر محاضراته اللسانية، وأصدروها في كتاب أصبح مرجعاً رئيسياً في اللغة واللسانيات. وهكذا يتجلى أن العوامل الثلاثة المذكورة (مساعدة اللغة على تخليد الفكر، وانتماء الفكر إلى عالم الروحانيات، وتأهل طبيعة الفكر للاستقلال عن صاحبه والبقاء بعده) تعمل كلها لصالح بقاء الفكر طويلاً أو خالداً بعد رحيل صاحبه.

عاشراً: البُعد الميتافيزيقي للفكر

إن وجوب حضور اللغة كوسيلة لإنشاء الفكر عند الإنسان ليس الوظيفة الوحيدة التي تقدمها اللغة لفكر المفكرين في جميع الثقافات البشرية؛ بل إن للغة أيضاً، وبخاصة المكتوبة، دوراً حاسماً في تمكين الفكر من تجاوز فترة حياة مؤلفه بعقود أو قرون، أو إلى أجل غير مسمّى بعد وفاته. يضفي هذا الدور على الفكر البشري **بُعداً ميتافيزيقياً** لأنه يمكّن الفكر من عدم الرحيل مع رحيل صاحبه جسدياً. إن ملامح اللمسات الميتافيزيقية في الأنساق اللغوية لا تحتاج الى عناء كبير لإثباتها؛ فالمعطيات الميدانية تؤكد قدرة اللغة على تخليد الأفراد والجماعات رموزياً ثقافياً عبر الزمان والمكان. فعلى المستوى الجماعي، تمكّن اللغة المكتوبة على الخصوص المجموعات البشرية من تسجيل ذاكرتها الجماعية، والمحافظة عليها وتخليدها، وذلك رغم اندثار وجودها العضوي والبيولوجي، ورغم إمكانية تغييرها للمكان وعيش أجيالها اللاحقة في عصور غير عصورها. فمحافظة لغة الضاد محافظة كاملة على النص القرآني خير مثال على **مقدرة اللغة التخليدية** بالنسبة إلى حماية الذاكرة الجماعية والتراث الثقافي لبني البشر من واقع الفناء المتأثر بالتأكيد بعوامل الزمن والبيئة والوجود الجسمي المادي للمجموعات والمجتمعات والحضارات البشرية ذاتها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأفراد؛ فالكتّاب العباقرة في جميع الحضارات الإنسانية وعبر العصور المتلاحقة، ما كانوا ليستطيعوا تخليد أفكارهم ونظرياتهم بالكامل لولا توافر اللغة المكتوبة المتطورة على الخصوص في ثقافاتهم.

فأفلاطون وأرسطو وأخناتون والمعري وابن خلدون وابن رشد وروسو وماركس... ما كان لأفكارهم أن تصمد أمام عتاة الزمن لقرون طويلة، وربما إلى أجل غير مسمى، لو أنها لم تُحفظ في لغات مكتوبة.

باختصار، إن الأنساق اللغوية تسمح لرصيد ذاكرات الشعوب وأفكار الشخصيات اللامعة بالتمتّع بقليل أو بكثير من سمات الخلود والأزلية. وممّا لا شك فيه أن كتابة الجابري لمشروعه الفكري العظيم بلغة الضاد تؤهل هذا الفكر لكسب رهان بقائه بعد وفاة صاحبه (في ٣ أيار/مايو ٢٠١٠) زمناً طويلاً، يمتد عقوداً أو قروناً.

حادي عشر: مشروعية خلود الفكر البشري

في ضوء تحليلنا العقلي والنقلي السابق لطبيعة الرموز الثقافية، تجلّى أن هذه الأخيرة تمثّل مركزية هوية الإنسان. كما اتضح لنا برؤية ومنهجية العقل البرهاني، باصطلاح الجابري، أن الرموز الثقافية ليست بالعناصر المادية لأنها فاقدة للوزن والحجم. ومن ثم، فهي تتسم بصفات ميتافيزيقية متسامية تؤهلها للبقاء طويلاً أو حتى للخلود. ومن منظور النقل البياني، بتعبير الجابري، الوارد في القرآن الكريم، فإن **أصل الرموز الثقافية** ﴿**فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ لدى الجنس البشري **أصل إلهي/ميتافيزيقي في الصميم يمثّل الخلود في أوسع معانيه وأشملها**. وهكذا، يتفق العقل والنقل تماماً على وصف طبيعة الإنسان بأنها مزدوجة: جسد ورموز ثقافية/روح. فالجسد معرّض لحتمية الفناء، بينما منظومة الرموز الثقافية مرشحة بقوة للبقاء الطويل أو للخلود بسبب طبيعتها غير المادية/المتعالية والميتافيزيقية. ومن هنا، تأتي مشروعية استعمال الناس من الخاصة والعامة كلمة **الخلود** لكي يصفوا بها فكر أو حكمة هذا الفيلسوف، أو ذلك المفكر الكبير ورجل الدين والعالم الشهير، وهم الذين ظلت الأجيال المتعاقبة تردّد أفكارهم ونظرياتهم وحكمهم وقوانين اكتشافاتهم، وتستعملها عبر العصور. وكما أكدتُ في مطلع هذا البحث، فإن مسألة خلود الفكر الإنساني تثير بالطبع **سؤالاً معرفياً** لا ينبغي الهروب منه ولا محاولة الإجابة عنه بكثير من **الغموض** الذي يضر، في نهاية المطا ف، بعمليتي الفهم والتفسير، ومن ثم بكسب رهان التقدم في ميادين المعرفة والعلم. أعتقد أن الإطار النظري لمفهوم الرموز الثقافية قد ساعد كثيراً على وضع حد للغموض في الفهم والتفسير، ومنه القدرة الكافية على التعرف إلى أسباب طول بقاء أو خلود الأفكار والحكم والنظريات والمفاهيم والقوانين العلمية عبر الزمان والمكان. فكما رأينا من **وجهة النظر الإيبستيمولوجية القرآنية**، فإن أصل الرموز الثقافية هو النفخة الروحية/الثقافية الإلهية في آدم ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾، أي إن جذور الرموز الثقافية البشرية هي **جذور ميتافيزيقية إلهية تتصف بالأزلية والسرمدية**، التي هي من صفا ت الله في القرآن الكريم. وعليه، لا غرابة، إذن، ومن منظور هذه الرؤية، في أن يكون الفكر البشري بجميع أنواعه مؤهَّلاً لمدى حياة طويلة، أو للخلود النسبي على الأقل، عبر العصور وعبر الثقافات والحضارات البشرية المتنوعة □